وصايا الشيوخ للشبان

لجناب العالم العامل الدكتور ورتبات

(تابع ما قبله)

ان وصايا الحكماء بشأن المال هي اولاً الاقتصاد اي ان يعدل الرجل بين الاسراف والتقتير بحيث لا يكون مبذّرًا ولا بخيلاً فاذا لم يصر ذلك عادة مستمرّة وملكة في النفس فهيهات للانسان ان يجمع المال او يتخلص من عذاب الفقر او يتهيأ لصروف الدهر . ومن امثال الحكمة "القليل مع التدبير خير من الكثير مع التبذير" . والثاني الصدق في المعاملة وهو قاعدة النجاح لان الانسان الذي لا يجعله صفة لازمة لاعماله لا يكتسب ثقة الناس واذا باعهُ بالمال كان خاسرًا يتعذّب ابدًا بما يعرفهُ في نفسهِ مما اكتسبهُ بالحرام وبما يعلمهُ الناس من حقيقة امرهِ . والثالث التصدّق على الفقراء وعمل الخير . ومن امثال العامة بهذا الشأن " المركب الذي لا شيء فيهِ لله يغرق " . وقد تقدم كلام المصريين القدماء في هذا الصدد . وورد في التوراة "من يسدُّ اذنيهِ عن صراخ المسكين فهو ايضاً يصرخ ولا يستجاب" . وفي الانجيل " تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم لاني جعت فاطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريباً فآويتموني عريانًا فكسوتموني" . وجاء في الحديث الشريف " الخلق عيال الله واحبُّ الناس الى الله انفعهم لعيالهِ " . والرابع اجتناب الدَّين لانهُ والعبودية سيّان . فلا تشترِ الاَّ نقدًا ولا تنفق غرشًا الاَّ وانت حاسبهُ وعارف ان في وسعك انفاقهُ ولا تكن تنفقك اكثر من دخلك . ومن امثال العامة حاسب نفسك تسلم ومن امثال الاسبنيوليين من يشكو النوم الكثير فليقترض وسادة المديون . وقال بعض العرب عالجتُ الحديد ونقلت الصخور فلم أرَ حملاً اثقل من الدَّين . وقال بعض فضلاء الانكليز الجوع والبرد والرثة واجهاد العمل وازدراء الناس ومظنتهم وافتراؤهم امور مكروهة وشرٌّ منها جميعها الدَّين فابعد عنهُ كما تبعد عن الشيطان . ثم ايّاك ايّاك والقمار الذي صار دأبًا للكثيرين تريد ان تربح بهِ المال بلا تعب فيأتيك بالخراب والهوان وان تنتفع باذى غيرك فيرتدّ الاذى اليك . وهو عادة اذا تمكّنت صارت ملكة قاهرة للانسان توثقهُ باشدّ الوثاق وتجعلهُ عبدًا ذليلاً لها فابعدوا عنها قبل ان تستولي عليكم وتجذبكم الى هاوية الهلاك . وهي لا تأتي الاَّ بضرر الصحة وافساد الذكر الحسن والبطالة والخراب الكامل عاجلاً او آجلاً

والاقتصاد في الزمان واجب كالاقتصاد في المال لان من يشغل زمانهُ بالعمل يشغلهُ بالربح ومن يشغلهُ بالكسل واللهو خسر ما يمكن ربحهُ وخسر ايضاً شيئاً كبيراً من حسن الاخلاق فان الانسان يكون بحسب ما يتصرَّف في الزمان. قال سنكا الفيلسوف الروماني "اننا نشكو قصر الزمان ونحن لا نعرف كيف نشغل ما عندنا منهُ واننا نصرف حياتنا في البطالة او بعمل ما لا فائدة منهُ او في اهمال ما يجب علينا. نشكو ابدًا قصر العمر ونتصرَّف كاننا خالدون في الدنيا". ومما يعين على الاقتصاد انتظام العمل بحيث يكون لكل ساعة عمل خاصٌ بها. فان الذين اشتهروا بكثرة الاعمال واتقانها وجودتها من رجال العلم والسياسة والتجارة والصناعة هم الذين جعلوا لكل امرٍ وقتاً فرتَّبوا زمانهم ونسَّقوهُ استدراكاً للمهام ٱلَّتي كان قضاؤها مستحيلاً لولا نظام العمل الذي نهجوهُ

ثم لا بدَّ ايضاً من الاقدام في العمل اي ان يبادَر اليهِ بالهمَّة بلا توانٍ او تردد او تقلُّب لئلاَّ تفوت الفرصة او يَمَلّ من العمل قبل الشروع فيهِ قال الشاعر

غفلة المرء عن دواعي المعالي من دواعي تخلُّف الآمالِ

والممنوع هنا ليس التروي والتأني والاستشارة بل التكاسل والتردد لان الذين يتقلبون في نياتهم ومقاصدهم هم الضعفاء الذين لا يفلحون في الدنيا المشار اليهم في المثل السائر يوم العاجز غدٌ. قال بعضهم لا تؤخرن عملاً عن وقتهِ فان الوقت الذي تؤخرهُ اليهِ عملاً آخر ولست تطيق ازدحام الاعمال لانها اذا ازدحمت دخلها الخلل

وفي الصداقة شأن كبير للانسان خاصة للشاب لانها تأتيهِ بالفائدة اذا كان العشير اديباً كما انها تأتيهِ بالضرر والعار اذا كان دنيئاً لئيماً فيُحكَم فيك ما يُحكَم في صديقك لانهُ لا يتأتى ان تكون مودة بين اثنين ولا يكتسب الواحد منهما شيئاً من الآخر ولذلك قالوا لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق من طبعهِ شرًّا وانت لا تعلم وقالوا

عن المرء لا تسأل وسَل عن قرينهِ فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

وقالوا: واحذر مواخاةَ الدنيِّ فإنهُ يعدي كما يعدي الصحيح الاجربُ

وقالوا: حسْبُ الكريمِ مَذلَّة ومسبَّةً ان لا يزالَ الى لئيمٍ يرغبُ

وبناءً على ذلك كانت الوصايا بهذا الشأن ان لا تتخذ خليلاً الاَّ من كان قياسهُ في الادب ارفع من قياسك لا تعجل بل تأنَّ في انتخاب صديقك

ان الرجال صناديقٌ مقفَّلةٌ وما مفاتيحها غير التجاريبِ

ثم اذا واليت صديقك فلا تقطع حبل ودادك الاَّ لامر كبير وكن صبورًا لعل الخلاف يزول

وألق الاحبة والاخوان ان قطعوا حبل الوداد بحبلٍ منك متصلِ
فأعجز الناس حرٌّ ضاع من يده صديقُ وِدٍّ فلم يردده بالحيلِ

وليكن بينك وبينهُ شيءٌ من المساواة في السن ورتبة الحياة لانهُ اذا كان ارفع منك مقاماً او غنىً فربما عاملك معاملة الرفيع للوضيع وهو ذلٌّ لك وان كان ادنى منك فربما عاملتهُ انت بمثل ذلك وهو ذلٌّ لهُ. ولا تكثر من مخالطة الناس فربما اصاب الشاعر في قولهِ

كن ما استطعتَ عن الانام بمعزلٍ انَّ الكثيرَ من الورى لا يُصحَبُ

ومن الامثال وحدة المرء خير من جليس السوء . وقال بعضهم اطول الناس سَفَرًا من كان في طلب صديق يرضاهُ . واما قول الآخر الصديق اسم لغير مسمّى فمن باب المبالغة او لا يقولهُ الاَّ ناقص المروّة الذي يطرح اثقالهُ على اصدقائهِ ويكلّفهم اكثر مما يحقُّ لهُ وينسى المثل القائل صبرك على الاكتساب خير من حاجتك الى الاصحاب والمثل الآخر اذا وجدت حاجتك في السوق فلا تطلبها من اخيك

وكما يجب ان تنتخبوا الاصدقاء ولا تواظبوا الاَّ اذا رأيتم فيهم الفضل وحسن الاخلاق هكذا اختاروا الكتب ٱلَّتي تقرأونها فهي خير الجلساء اذا كانت مما يتضمن حكمة الازمنة السالفة والحاضرة . لانها تزيدكم علماً وتهديكم صراط الحياة المستقيم وتفعل فيكم فعل قدوة الصديق اذا كان عاقلاً كريماً . وكما تحذرون جليس السوء ومعاشرة اللئيم ابعدوا عن الكتب ٱلَّتي تفسد النفس او ٱلَّتي لا خير في قراءتها لما فيها من ركاكة العبارة والمعنى . وقد كثرت في هذه الايام ترجمة الروايات وعمد اليها الاحداث فلا بدَّ من التمييز بينها واختيار الادبي المفيد منها ونبذ ما كان مضرًّا بالاخلاق . واني لاجفل كلما دخلت بيتاً ورأيت بجانب الاسرّة الروايات في لغات شتى وأنا اعلم حق العلم ان الكثير منها لا يستحق القراءة وبعضها يجب ان يُطرَد كما يُطرَد السفهاء في الحال اذا رأيناهم مع ابنائنا وبناتنا . ولا انسى اني اخاطب الآن الذين تعلموا بعض اللغات الاجنبيَّة مع اللغة العربيَّة فاقول لهم اعمدوا الى افضل ما كُتب في اللغات ٱلَّتي تعرفونها واقرأوهُ المرَّة بعد المرَّة الى ان ترسخ معانيهِ في اذهانكم وتتعلموا منهُ منهج العقل السليم وفصاحة العبارة وبلاغتها . ومن المحال ان تطالعوا الكتب النفيسة وتصاحبوا في خلوتكم اصحاب العقول الرفيعة والمعارف الكثيرة والانشاء البليغ ولا تربحوا فائدة حقيقيَّة وتنالوا لذَّة عقليَّة وقوتاً للنفس ورفعة في المقام وعوناً لا عمال الحياة او لاحتمال اسوائها . غير انهُ من الواضح ان جانباً عظيماً من مطالعتكم يجب ان يكون في ما هو خاصٌّ بالحرفة ٱلَّتي تحترفونها لكسب

معيشتكم حتى تكونوا فيها ماهرين وتنالوا رتبة عالية بين مناظريكم

وليس المراد بكل ما تقدَّم من الحثّ على العمل ان تشغلوا جميع الزمان بالكدّ وان تغفلوا الرياضة واللهو والتنزُّه ٱلَّتي تطلبها قوانين الصحة ويرشدكم اليها صوت الطبيعة . لانهُ اذا ادّى الكسل الى الحرمان فمثلهُ العمل بلا راحة الذي ينتهي الى خسارة الصحة وهي اذا زالت لم يبقَ محل للنجاح بل قد تزول الحياة كلها مع زوالها . فلا تطمعوا بدوام العافية ٱلَّتي هي اعظم النعم وبنيل ما سمَّاهُ قدماء الرومانيين العقل الصحيح في الجسد الصحيح ٱلَّا اذا فرَّغتم جانبًا من كل يوم للرياضة واللهو العقلي لانهُ كثيرًا ما يقع الانسان في الطلل بل قد يموت شهيدًا في سبيل العمل الدائم . فاسعوا الى الكفاية من ذلك كما تسعون الى الكفاية من الطعام والشراب والنوم واللباس والمأوى والنظافة والهواء النقي فهي جميعها مما لابدَّ منهُ . ولكن احذروا الافراط فيها والفاسد منها لئلَّا تصير دأبًا يشغلكم عن مهام الحياة او وسيلة لاتِّباع اهواء النفس الامَّارة بالسوء . ولا تحسبوا ان اقوال الحكماء ونصائح الشيوخ ووصايا الدين الادبيَّة تمنع الشاب عن الفرح والسرور ولذَّة الحياة اذا كان ذلك جائزًا حلالاً او تُلزمهُ باكثر مما يطيق من الرصانة والرزانة ألا ترون ان شيخ الحكماء ذلك الامير المصري الذي كتب للشاب منذ خمسة آلاف سنة قال لهُ كن ابدًا طليق الوجه هل رأيت احدًا خرج من تابوته . وقال كاتب سفر الجامعة افرح أيها الشاب في حداثتك وليسرَّك قلبك في ايام شبابك ان عاش الانسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها . وقد كرر معنى هذه العبارة في كتابهِ سبع مرات . وعلى هذا لا تكون اقوال الحكماء وكتب الدين مما يعلّم الانسان ان يسير في طريق الحياة كاسف الوجه حاملاً اثقال الغم والهم مع اثقال العلم والحكمة . وانما الذي منعوهُ هو ما يتوهمهُ الشاب سرورًا اذا ذهب في طريق الحرام وقد اجمعوا بلا خلاف وبعد خبرة الوف السنين على ان الانسان لن يجد لذَّة ثابتة في مخالفة سنن الآداب والحق والبرّ والعفة فاذا تمدَّاها لقي عقابًا كثر او قلَّ كالقصاص الشرعي والألم والمرض والفقر والعار وتوبيخ الضمير والحساب امام الله في الآخرة

وللامور وللاعمال عاقبة فاخشَ الجزا بغتةً واحذرهُ عن مَهَلِ

وقبل نهاية الكلام يجب ان انبهكم الى امر كبير يعينكم في تدبير حياتكم ونجاحكم وهو ما تسميهِ العامة بحسن السلوك ويريدون بهِ حسن التدرُّب في معاشرة الناس كجودة الاخلاق واللطف والملاينة . ويظهر المعنى في الحال من مقابلة نظر خشن الكلام عابس

الطلعة يبعد الناس عنهُ برجل لطيف بشوش رقيق العبارة حسن الهيئة يُرحّب بهِ حيثما ذهب . ومن جوامع الكلم من لانت كلمتهُ وجبت محبتهُ . ومن حكايات القوم انهُ كان لرجل من اهل الوجاهة والغنى ولد وحيد اراد ان يحسن تربيتهُ فارسلهُ الى شيخ عالم في بلد بعيد ليدرس عليهِ فلما شبَّ الغلام وتلقّى علوم ذلك الزمان رجع الى بيت ابيهِ ومن شدة فرحهِ قرع الباب قرعاً عنيفاً فسأل ابوهُ من هذا فقال الخدام هو ابنك جاء وبيدهِ اجازة العلم قال كلاَّ بل لا يزال ناقص التهذيب ليعُد الى حيث اتى ولا يرجع الاَّ متى احسن اللطف . ولا تحتقروا هذا القول وتظنوا انهُ يحمل على التأنُّث الذي لا يليق بالرجل بل اذكروا ان محاسن الاخلاق صفة النفس الرفيعة وانها كثيرًا ما تفتح اقفالاً عسرة المعالجة وتؤيد صدق المثل الجاري باللطف تُقتنَص الأُسود ويحصل كل مقصود . ولذلك اجتهدوا لتربوها في انفسكم . اكرموا الشيوخ واحترموا النساء ولاطفوا الخدم والمساكين كما تلاطفون اصحاب الوجاهة والشأن . قيل في رجل انكليزي من كبار القوم انهُ اكتسب محبة الجميع لانهُ كان يعامل الفني والفقير وضيوفهُ الاشراف وخدامهُ معاملة واحدة في الرقة والتلطف . وقيل في آخر منهم انهُ ردَّ يوماً تحيَّة عبدٍ اسود فانكر عليهِ ذلك اصحابهُ وقالوا هذا غير المألوف فاجاب لعلهُ يكون ولكن هل يسبقني الزنجيّ في اللطف والادب . ولا نريد بما تقدَّم ان يتكلَّف الانسان ويتظاهر بما ليس فيهِ طبعاً او اكتساباً لانهُ اذا لم تكن هذه الصفات فيهِ حقيقةً لا يستطيع ان يريها في نفسهِ ولو بالعناء الطويل . واما انتم فاكرموا انفسكم واعزوها ولتكن فيكم المروءة ألّتي غايتها ان يستحي الانسان من نفسهِ ويأنف من الخساسة ويستكبر على كل ما يحط شأنهُ . فهذه ايها الشبان جلُّ وصايا الشيوخ لكم اذا اتبعتموها وجدتم شيئاً من الراحة والسعادة والنجاح

قد بلَّغتكم ما اجمع عليهِ اصحاب السنّ والخبرة والعقل والحكمة والصلاح في كل مكان وزمان وبقي لي ان اقول انهُ باطلاً ما يعظكم الواعظون وينصحكم الناصحون ما لم يكن لكم من انفسكم ما يحكم على اهوائكم ويردعكم عن الشر . فأصغوا الى ما في باطنكم من هذا الصوت الذي يصرخ ابدًا في اذنيكم ويقول انهضوا بكل ما لكم من القوة والعزم لعمل ما يجب عليكم وابعدوا عن الخطاء واسبابهِ واذا سقطتم في تجربة او ورطة يعسر النجاة منها فلا تيأسوا بل جاهدوا وخلِّصوا انفسكم لانهُ

لا ترجعُ الانفسُ عن غيّها ما لم يكنْ منها لها زاجرُ